ذاكرة

بورتريه موجز لأمّي
وشْمٌ يختزل وجهها البعيد

لم تقف أمّي قَطّ أمام مصوّر. في الوقت الذي عاشت فيه حياتها القصيرة لم يكن التقاط الصور شائعاً في القرى النائية. فرنسا لم تنجح في إرغام جميع السكّان في الأرياف على أن تكون لهم بطاقات هويّة، والحكومة التونسية بعد الاستقلال كانت منشغلةً بأمور أهمّ

الحبيب السالمي

اسمها
منوبية. هذا هو اسمها. لكنّها تُحبّ أن تضيف عندما تذكره «بنت محمود»، بالرغم من أنّ لا أحد في الدوّار يُدعى مثلها. في تلك الفترة البعيدة، كانت هناك في أرياف تونس أسماء شديدة التميّز. في قرية العلا التي وُلدتُ وأمضيت فيها كلّ طفولتي وجزءاً مهمّاً من مراهقتي، كانت هناك امرأة تُدعى «باشا»، وأخرى «تونس»، وثالثة «توزر»، ورابعة «حضريّة».

أبوها
محمود هذا لم يكن أيَّ محمود. لا بُدّ أنّ إضافة اسم والدها تمنحها شيئاً من الاعتزاز. كان الوحيد في الدوّار الذي له وظيفة في «الحكومة». مفتّش حشيش، أو «فركات نفّة» كما يسمّونه. يؤدّي عمله في الأرياف بحثاً عن الحشيش الذي كان يزرعه الناس في المطامير والمغاور والكهوف وشعاب الأودية كي لا تكتشفه الحكومة. زراعة الحشيش ممنوعةٌ والقانون يعاقب عليها بشدّة.

موتها
ماتت في صباح يوم صيفي قبل أربعة أشهر من بلوغي الثانية عشرة. صرتُ على يقين من ذلك فيما بعد، عندما كبرتُ وأصبحت رجُلاً، وهو ما كانت تحلم بأن تشهده. مرض السلّ الذي عانت منه لم يُمهلها. أتذكّر الدم الذي كان يسيل من فمها عندما يشتدّ سعالها. بعض القطرات الصغيرة تتطاير فتقع على يدي. أبي يحاول أن يُبعدني عنها كي لا تنتقل إليّ العدوى، لكنّها تتشبّث بي. «اترُكه إنّه ابني». لا يجرؤ أبي على أن يفصلني عنها بالقوّة. ليس احتراماً لها أو خوفاً منها، وإنّما تقديراً لأبيها المتوفّى، وأيضاً لأخيها محمّد.

أخوها
محمّد هذا ليس هو الآخر أيّ محمّد. كلّ الناس يحترمونه، بل هناك من كان حريصاً على ذِكر كلمة «الشيخ» أمام اسمه كلّما نطق به بالرغم من أنّه لم يتجاوز الثلاثين. إنّه الوحيد في الدوّار الذي يعرف القراءة والكتابة. يحفظ عن ظهر قلب بضع آيات من القرآن. تعلّم ذلك في الكتّاب. إلّا أنّ الأهمّ من هذا هو أنه يعرف الفرنسية. درس مع أبناء الفرنسيس في بيشون حتى «السرتفيكا» دون أن ينالها. والتونسيّون الذين يدرسون حتى السرتفيكا لم يكونوا كثيرين في تلك الفترة. وكانوا من أبناء الأعيان. ولو لم يكُن أبوه على علاقة بالفرنسيس بحُكم أنّه كان «فركات نفّة»، لما تمكّن من أن يدرس مع أبنائهم.
كان محمّد فخوراً جدّاً بمعرفته اللغة الفرنسيّة. وفي بعض الأحيان كان يتكلّم بها أمام الناس الذين يجهلون حتى كتابة أسمائهم بالعربيّة كي يُظهر تفوّقه عليهم.

كان الذهاب إلى القيروان سفراً حقيقيّاً يستعدّون له طويلاً

قامتها: الشيء الوحيد منها الذي لا يزال ماثلاً في ذاكرتي

كان يحلو له أن يمتحنني عندما بدأت تعلّم الفرنسيّة. لا يسألني عن أسماء بعض الأشياء المتداولة كالخبز والماء والبيت والمطر والعشب، وإنّما عن أشياء لا تخطر ببالي إطلاقاً: العرعر. إكليل الجبل. الورل. الحرباء.

صورتها
لم تقف أمّي قَطّ أمام مصوّر. في الوقت الذي عاشت فيه حياتها القصيرة (1916 - 1962) لم يكن التقاط الصور خاصّةً للنساء شائعاً في القرى النائية، بل كان شبه منعدم. فرنسا التي كانت تستعمر تونس عندما كبرت أمّي لم تنجح في إرغام جميع السكّان في الأرياف على أن تكون لهم بطاقات هويّة، وهي وثائق لا بدّ أن تحتوي على صور لأصحابها. والحكومة التونسيّة التي استلمت السلطة بعد استقلال البلاد كانت منشغلةً آنذاك بأمور أهمّ بكثير من بطاقات الهويّة.
في ذلك الزمن كلُّ النساء في الأرياف كنّ يلازمن بيوتهنّ طوال اليوم، ولا يخرجن إلّا لأداء بعض الأعمال في الحقول كقطاف الزيتون واللوز أو لرعي الماشية أو لجمع الحطب والجلّة التي كانت تُستعمل كوقود للطبخ. فما الحاجة إذن إلى أن تكون لهنّ بطاقات هويّة؟
الحقيقة أنّ امتلاك صور في تلك الفترة في الأرياف البعيدة لم يكُن أمراً سهلاً. لا أحد يملك كاميرا. ومحلات التصوير منعدمة تماماً في القرى وحتى البلدات المجاورة. كلّها توجد في المدن. وبالرغم من أنّ المسافة التي تفصل بين قريتنا ومدينة القيروان لا تتجاوز الستّين كيلومتراً، فقد كانت تبدو لهم آنذاك بعيدة. كان الذهاب إليها يُعدّ سفراً حقيقيّاً يستعدّون له طويلاً. كان مُكلفاً، كما أنّ ثمن الصور كان مرتفعاً. وبالإضافة إلى كلّ هذا، كان هناك أناس ينتابهم قليل من الخوف من الوقوف أمام مصوّر. عمليّة التصوير ذاتها تبدو لهم مبهمة عجيبة. كيف تستطيع آلة بكْماء أن تنقل وجوههم بكل هذه الدقّة والوضوح على الورق بمجرّد الوقوف أمامها والتحديق فيها لبضع ثوانٍ؟
أمّا فكرة التقاط الصور لغاية استيطيقيّة أو لتخليد لحظات وحالات معيّنة أو لمجرّد الذكرى فلم تكن آنذاك تخطر ببال أحد. ما الجدوى من ذلك؟ وإن أردنا التذكّر فليس هناك ما هو أفضل من الذاكرة للقيام بذلك. هذا ما كان يردّده الجميع. يعرفون أنّ للذاكرة ثقوباً كثيرة وأنّها ليست محايدة؛ إذ تحتفظ بما تريد وتُغيّب ما تريد. لكنهم لا يعيرون هذا أيّ اهتمام. أنا الآخر لم أقف أمام مصوّر إلّا عندما بلغتُ سنّ الثالثة عشرة وأكملت الدراسة في المرحلة الابتدائيّة. كان لا بدّ لمواصلة دراستي من اجتياز امتحان الشهادة الابتدائيّة التي تخوّل لي الانتقال إلى المرحلة الثانويّة. ولاجتياز هذا الامتحان ينبغي إعداد ملفّ يتضمّن صوراً لي.
هكذا وجد أبي نفسه مضطّراً لاصطحابي إلى مدينة القيروان لالتقاط صُوَر لي. قبل ذلك لم يشعر قطّ بأيّ رغبة في اصطحابي إلى مصوّر. لذا لا أعرف كيف كنتُ وأنا رضيع أو في أعوامي الأُولى. كلّ ما لديّ من صور في ذهني عن نفسي في تلك الفترة هي متخيّلة تماماً اعتماداً على ما رواه لي كبار السنّ من عائلتي الذين يتمتّعون بذاكرة قويّة. وأنا على يقين من أنّ جزءاً مهمّاً ممّا يقولونه غير صحيح أو مبالغ فيه، إذ هناك اختلافٌ كبير بل تناقض في أقوالهم. وفي محاولة للاقتراب قدر المستطاع من صورتي الحقيقيّة وأنا رضيع وطفل، ألجأ في بعض الأحيان إلى صور ابني في أعوامه الأُولى. هناك شبه بيني وبينه الآن. لكن لا شيء يؤكّد لي أنّني كنتُ مثله حين كنت رضيعاً. الشبه يتغيّر بالتقدّم في العمر. الأجساد تتغيّر تماماً. قسمات الوجه أيضاً. ثمّ إنّ الابن قد لا يُشبه أباه في البداية وإنّما أحد جدّيه.

وشمُها
ثمّة وشم في وجه أمّي. أنا واثق من الموضع الذي يحتلّه. لم يكن في ذقنها أو على أحد خدّيها وإنّما على جبينها، وتحديداً في وسطه. لا يمكن أن أخطئ في ذلك؛ فالوشوم على الجبين تكون دائماً في وسطه وفي الموضع الذي يعلو بداية انحدار الأنف.
وجود هذا الوشم هو كلّ ما أزال أذكره من وجهها. صار بمرور الزمن يختزله. بيد أنّي لم أعُد أذكر حجم الوشم ولا شكله. كما أنّي لا أدري إن كان يُمثّل شيئاً ما من الواقع. سمكة أو نجمة أو يد، وهي أشياء يستعين بها سكّان الأرياف لدفع الأذى وطرد «العين الشرّيرة».
أميل إلى أنه مجرّد رسم تجريدي مثل الوشوم البربريّة التي نشاهدها على وجوه النساء في تونس وكلّ البلدان المغاربيّة. خطوط قصيرة أو طويلة. متقاطعة أو متوازية. نقاط متتابعة على نحو ما. أشكال هندسيّة تشبه المثلّثات والمربّعات والدوائر.
لا شكّ أنّه كان يضفي على وجهها شيئاً من الجمال. الوشوم في تلك الفترة كانت زينة. النساء في الأرياف لم يكنّ يعرفن من الماكياج كما نراه اليوم سوى تكحيل العينين بالكحل. كلّهنّ كنّ يلجأن إلى توشيم وجوههنّ لكي يصبحن أكثر جمالاً، وليس للفت الانتباه أو للتعبير عن موقف ما أو لغاية إيروتيكيّة كما نشاهد لدى نساء اليوم اللواتي جعلن من الوشم موضة.
في بعض الأحيان أبحث في غوغل عن صور لوجوه نساء تونسيّات ريفيّات تحمل وشوماً. أتأمّل بعضها للحظات طويلة ممنّياً النفس بأن أعثر فيها على ما يمكن أن يبعث من أعماق ذاكرتي شيئاً ما يحيلني ولو بشكل غير مباشر إلى وشمها. لكن لم أجد أيّ شيء. هل كان وشمها مختلفاً عن وشوم النساء الأخريات؟ هل هي التي طلبت ذلك؟ لا أظنّ. الوشّامة هي التي تُقرّر في العادة ما توشّم. النساء يكتفين بتحديد مكان الوشم. هل قرّرت الوشّامة لسبب ما أن ترسم لها وشماً متميّزاً لا يشبه أيّ واحد من كلّ الوشوم التي كانت تقوم بها؟

صوتها
صوتها أيضاً ضاع منّي. تبخّر شيئاً فشيئاً كما يتبخّر دخان شفّاف. لا أدري لماذا أتخيّله دائماً رقيقاً وبه ما يشبه الخنّة الخفيفة.

وجهها
كلُّ قسمات وجهها اختفت تماماً، أو أمست باهتة جدّاً إلى درجة يستحيل معها استعادتها. لديّ أختٌ تكبرني بسبعة أعوام لا تزال على قيد الحياة. هي الأُخرى لم تعُد تذكُر شيئاً من قسمات وجه أمّنا. الحقيقة أنّ ذاكرتها أضعف بكثير من ذاكرتي. كان من الممكن أن أعتمد على قسمات وجهها للقبض على بعض ملامح وجه أمّي. لكنّ الجميع يقولون إنّها لا تشبه أمّي إطلاقاً، وإنّما إحدى عمّاتي.

قامتها
الشيء الوحيد منها الذي لا يزال ماثلاً في ذاكرتي هو قامتها. كانت طويلة ونحيلة. بيد أنّ هذه القامة تحضر غائمة. كتلة رمادية بلا ملامح وبلا تخوم أشبه بشبح طويل طالع من حلم نستعيده بعد اليقظة بوقت طويل... أو من سراب في يوم قائظ.

امرأة من الجنوب التونسي عام 1950 (Getty)

بطاقة

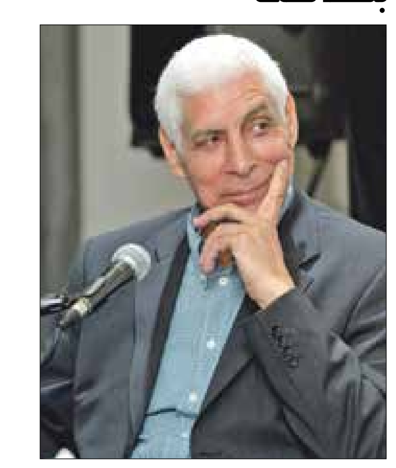

روائي تونسي من مواليد 1951، مقيم في باريس منذ 1985. صدرت له مجموعتان قصصيتان: «مدن الرجل المهاجر» (1977) و«امرأة الساعات الأربع» (1986)، واثنتا عشرة رواية؛ من بينها: «جبل العنز» (1988)، و«صورة بدوي ميت» (1990)، و«متاهة الرمل» (2000)، و«عشاق بية» (2004)، و«روائح ماري كلير» (2008)، و«نساء البساتين» (2010)، و«عواطف وزوّارها» (2013)، و«الاشتياق إلى الجارة» (2019)، و«عطلة في حيّ النور» (2023).

مع غزّة

محمد نجم

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

باريس ـ العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانِ إبادةٍ على غزّة؟
الهاجس الذي يشغلني هذه الأيام في ظلّ ما يجري من عدوان إبادة على غزّة هو أن يتعوّد العالم على هذا الحدث وهذا المنظر ويفقد الإحساس بفظاعة الموقف. هاجسي أن تستمرّ الحرب وأن يقع ضحايا آخرون من الأطفال والنساء وكبار السن. هاجسي أن يتفشّى المرض، فإذا نظرنا معمّقاً، نجد أنّ المرض قد تفشّى في العالم أجمع حينما تكشّف الوجه الحقيقي عن مبادئ الإنسانية التي تشمل فقط عرقاً معيّناً وتحت ظروف وشروط معيّنة. هاجسي أن تموت الإنسانية أو ما تبقّى منها.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟
أثّر العدوان على حياتي وحياة الجميع بالسلب بالطبع. أشعر بإحباط جديد ولا أجرؤ على كتابة موسيقى جديدة أو حتى التفكير في مشروع جديد. أُنجز فقط مهامي أو التزاماتي التي تمّ الاتفاق عليها مسبقاً. فقدتُ، مثل الجميع، الشغف والشعلة التي كانت تضيء الروح بالبهجة والسعادة عند إنجاز عمل معيّن. نحن جميعاً، وأنا تحديداً، أشعر بالعجز عن فعل أيّ شيء. أثّر هذا العدوان على حياتي بزيادة عزلتي في محاولةٍ للعثور على أجوبة لأسئلة عديدة ظهرت في هذه الفترة، منها ما وجدتُ لها حلولاً وأجوبة، ولكنّ القسم الأكبر لا يزال بلا إجابات.

■ إلى أيّ درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟
العمل الإبداعي فعّال، ليس في مواجهة حرب الإبادة، فنحن عاجزون عن فعل أيّ شيء لمواجهتها، ولكنّنا نستطيع أن نُؤثّر ونضغط على الرأي العام أو على الرأي العام المحيط بنا بصفتنا فنّانين. في تلك المسارح التي نعزف بها، نُذكّر الناس ونُسلّط الضوء على قضايانا مع الجمهور لحثّه على البحث عن المزيد من الأجوبة أو المعلومات. نحن نقوم بدور سفراء نمثّل الجانب الثقافي والهوياتي الفلسطيني، الذي سُلب في عام 1948 عندما تمّت سرقة أرشيف إذاعتَي «هنا القدس» و«الشرق الأدنى»، وعندما تمّ تهجير جميع المبدعين الفلسطينيّين إلى المهجر، في محاولة لمحو الهوية الثقافية المتأصّلة والمتأثّرة بتراب فلسطين، لكنّهم فشلوا في ذلك ويفشلون في كلّ مرّة.
دور العمل الإبداعي هو توثيق لحظةٍ أو فترة، وتسليط الضوء على قصّة أو موقع أو زمان معيّن تمّ نسيانه، أو على عمل يريد منه الموسيقي أو المبدع أن يبقى في الذاكرة. نحن مرّةً أخرى سفراء ننقل الصورة الثقافية والهوية الفلسطينية إلى الجمهور الذي قد لا يكون قد تعرّض لمبدع أو فنّان فلسطيني، وإلى الأجيال القادمة، والأجيال الحاضرة، لكي يتأثّروا بحس الانتماء الملتزم بالقضية وتاريخ هذا البلد. ففلسطين ليست فقط مكاناً، بل هي هوية وثقافة متجذّرة في نفوسنا وذاكرتنا الجماعية.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟
لو قُيّض لي البدء من جديد، لاخترت المجال الإبداعي؛ لأنّ فيه دائماً فسحة ومجالاً للحرية... فسحة للتعبير والسفر روحياً إلى أماكن يصعب الوصول إليها بالتفكير المنطقي والعقلاني. نعم، التفكير الإبداعي يتّسم بنوع من الجنون والأفق الواسع الذي يسمح لصاحبه بالغوص عميقاً لرؤية المواضيع بشكل مختلف ومن زوايا أُخرى. لا أرى نفسي، ولم أرَ نفسي، في مجال السياسة، لأنّ السياسة والسياسيّين جميعاً عبارة عن مجموعة من الكذبة والمنافقين الذين يخدمون أجندات شخصية وأجندات أشخاص أو مجموعات أُخرى. بينما العمل الإبداعي يسمح لصاحبه بأن يكون حرّاً مرّةً أُخرى وصادقاً وعلى اتصال مباشر مع جمهوره. في النهاية، الجمهور سوف يفهم أو يُحبّ، وهذا موضوع يرجع إلى الذوق الشخصي والذوق العام.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟
ليت لي المجال لأن أُغيّر بعض الأمور في هذا العالم، سأبدأ بالتأكيد بإنهاء الظلم، والمعاناة، والمجاعات، والحروب، والتلوّث الفكري والذوقي، والسمعي، والثقافي، والبيئي بالتأكيد. يجب أن نعود إلى الفكرة الأساسية من الوجود وهي الإعمار وليس الدمار. لو كان لي أن أتمنّى تغيير هذا العالم، فسأتمنّى بكلّ بساطة انتهاء العولمة والنظام الرأسمالي، وأن يكون هناك عدل ومساواة بين البشر كافّة. يجب أن نسمح للجيل الجديد أو نترك له مجالاً لعيش حياة أفضل.

■ شخصية إبداعية مقاوِمة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟
بلا شك، غسّان كنفاني، أودّ أن أقول له شكراً لأنّك كتبت. لو لم تفعل، لما عرفناك، ولما عشنا كلّ أحداث رواياتك، وما كنّا سنتعرّف على رأيك وحكمتك وفراستك. شكراً يا غسّان.

العمل الإبداعي يسمح لصاحبه بأن يكون حرّاً مرّةً أخرى

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟
الكلام يعجز عن التعبير. لا أستطيع أن أقول أيّ شيء لأهلنا في غزّة إلّا كلمة واحدة: سامحونا. سامحونا جميعاً.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟
أعلم أنّ الإنسان العربي مناصرٌ للقضية الفلسطينية، لكنّه قد يكون محدوداً في قدرته على إحداث تغييرات كبيرة. ومع ذلك، أقول له: كُن فخوراً بكونك عربياً. نحن لسنا متخلّفين ولا أقلّ من الآخرين. لقد حاول الغرب تشويه صورة العرب وجعلهم يعتقدون أنّ العرق الأبيض هو المتحضّر بينما العرب متخلفون. اعتز بهويتك وركّز على تحسين نفسك لتكون الأفضل، فجذورك ومبادئك تمنحك القوّة لتكون مميّزاً. اعمل على تطوير نفسك ثمّ على محيطك، وكُن مؤثّراً بشكل إيجابي في حياتك وحياة الآخرين. كُن منفتحاً، استمع إلى الآخرين، وتقبّل وجهات النظر المختلفة دون إصدار أحكام مسبقة. أمّا للحكومات العربية، فأقول: صباح الخير.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟
إلى دارين وإلى جميع أطفال فلسطين: نحن كطير الفينيق الأسطوري يخرج من تحت الرماد في كلّ مرّة يتمّ فيها إحراقه. من تحت الرماد يخرج أطفال فلسطين. أمّا إليك يا دارين: يا عمّو أنا بحبّك كتير، أنت كتير قوية وكتير شاطرة، وكان المفروض تعيشي حياة أحلى بكتير من هيك. هذا ليس ذنبك وأهلك هلأ هم عايشين كلّهم في الجنّة مبسوطين. الله يرحمهم كلّهم ويرحم جميع الشهداء.

محمد نجم

بطاقة

مؤلّف موسيقي وعازف كلارينت وناي من مواليد القدس عام 1984. نشأ في مدينة بيت ساحور ثمّ انتقل لإكمال دراسته والعيش في فرنسا. عزف في العديد من المهرجانات والمسارح العالمية، وسجّل العديد من الأعمال الموسيقية لمشاريع مع عدّة فرق وموسيقيّين. يعمل حالياً مسؤولاً أكاديمياً في مؤسّسة «فيلهارموني باريس».

متابعة

تفاكُر معرضُ كتاب ولقاءات فكرية وأدبية
يومٌ للثقافة السورية في ألمانيا

تتضمّن الفعالية، التي ينظمها «منتدى تفاكُر» في مدينة كولونيا الألمانية، معرضاً للكتاب، وندوات حوارية، وجلسات توقيع كتب لعدد من الكتّاب السوريين

برلين ـ العربي الجديد

في مطلع العام الجاري، أطلقت مجموعة من الباحثين والأكاديميّين والكتّاب السوريّين المقيمين في ألمانيا جمعيةً ثقافية باسم «منتدى تفاكُر للحوار والثقافة» بهدف «إحياء الثقافة والفكر السوري والعربي في المهجر، وتعزيز النقاش الفكري والثقافي بين الناطقين باللغتين العربية والألمانية في ألمانيا وخارجها». خلال هذه الفترة، أقام المنتدى سلسلةً من الندوات التي أضاءت، من زوايا ثقافية وفكرية، موضوعات متنوّعة من الراهن السوري داخل سورية وفي الشتات؛ مثل: «مفهوم التراث الثقافي في السياق السوري» (وهو عنوان الندوة التي استهلّ بها أنشطته في شباط/ فبراير الماضي)، و«الاعتقال السياسي في سورية»، و«هوية السوريّين في ألمانيا وتركيا»، و«أوضاع السوريّين في تركيا»، و«النخب السياسية السورية»، أو ناقشت كتباً مثل: «أفول النخبة: قراءة نقدية في مسائل الثقافة، السلطة، والمثقّف» لماهر مسعود، و«ترجمة لغة الثورة السورية 2011 - 2012» لإيلاف بدر الدين، و«مسلمو أوروبا: تحدّيات الدين والهوية والاندماج» لمحمّد نفيسة.
«يوم تفاكُر للثقافة» هو عنوان الفعالية التي أعلن المنتدى إقامتها في مدينة كولونيا يوم السبت المُقبل، بالتعاون مع «مؤسّسة ميسلون للترجمة والثقافة والنشر» و«مكتبة أيلول» و«دار الزمان»، وتتضمّن معرضاً للكتاب، وجلسات توقيع كتب لثلاث عشرة كاتبةً وكاتباً سوريّاً، إضافةً إلى ندوات مع عددٍ من الكاتبات والكتّاب المشاركين.
يتضمّن المعرض، وفق بيان المنظّمين، قرابة 1500 عنوان في الأدب والسياسة والدين والفلسفة وعلم الاجتماع، بعضُها صدر حديثاً. أمّا الكتّاب الذين يوقّعون أعمالهم؛ فهُم: الفنّان سميح شقير الذي يوقّع ديوانه «ليس إلّا»، والكاتب عمار رجب تباب الذي يُوقّع روايته الأُولى «يوم تُحدّثُ أخبارها»، والشاعرة فاديا سلوم التي تُوقّع كتابها «بين غمائم الأزليّة»، والباحث مازن عرفة الذي يُوقّع كتابه «داريا الحكاية»، والكاتب ماهر مسعود الذي يُوقّع كتابه «أفول النخبة»، والكاتبة والمترجمة نجاة عبد الصمد التي تُوقّع روايتها «لا ماء يرويها»، والكاتبة وجيهة عبد الرحمن التي تُوقّع روايتها «كعب عالٍ»، والكاتب والصحافي محمد برّو الذي يُوقّعُ كتابه «ناجٍ من المقصلة».
ويحضر، أيضاً، خمسةُ كتّاب من أعضاء «منتدى تفاكُر للحوار والثقافة»؛ هُم: الأكاديمي والباحث حسام الدين درويش الذي يُوقّع كتابه «منمنماتٌ فكرية وحوارية في الفلسفة والحياة (اليومية) والقضية الفلسطينية»، والكاتب محمّد أمير ناشر النعم الذي يُوقّع كتابه «جورة الهَمّ: سوريا في زمن الأسد»، والباحث محمّد نفيسة الذي يُوقّع كتابه «مسلمو أوروبا»، والكاتبة والطبيبة نغم حيدر التي تُوقّع روايتيها «أعياد الشتاء» و«معارك خاسرة»، والصحافية يارا وهبي التي تُوقّع روايتها «وشمسُ أطلّت على ديارنا الغريبة».
وتُقام، خلال الفعالية، التي تبدأ عند الحادية عشرة صباحاً وتستمرّ حتى الثامنة مساءً (بتوقيت ألمانيا)، أربعُ ندوات حوارية؛ حيث يُحاور حسام الدين درويش محمد أمير ناشر النعم حول كتابه «جورة الهَمّ»، وتحاورُ نغم حيدر نجاة عبد الصمد حول روايتها «لا ماء يرويها»، ويُحاور حسام الدين درويش يارا وهبي حول روايتها «وشمسُ أطلّت على ديارنا الغريبة»، وتُحاور نهى سلوم سميح شقير حول ديوانه «ليس إلّا».

يحضر في الفعالية 13 كاتبة وكاتباً سورياً مقيمون في ألمانيا وخارجها

من ندوات «منتدى تفاكر للحوار والثقافة»

فعاليات

غرفةٌ مليئة بالناس عنوان معرض للفنّانة الأرمنية **جانيت هاكوبيان**، يتواصل في «غاليري زلفا حلبي» ببيروت حتى الحادي والثلاثين من الشهر الجاري. تُحاول هاكوبيان أن تخلق لشخصيات لوحاتها مجتمعاً جديداً للتحاور حول القضايا المجتمعية الراهنة في ما وراء الاجتماعي والديني والسياسي المُباشر.

عند الثامنة من مساء غدٍ الثلاثاء، تستضيف «مكتبة ديوان» في القاهرة ندوة لإطلاق ومناقشة كتاب **في عرض الطريق** (دار المرايا للثقافة، 2024) من تأليف مجموعة من الباحثين، وتحرير **داليا وهدان** و**لمياء بلبل**. عبر المزج بين الدراسات الأكاديمية والتجارب الشخصية، يناقش الكتاب مفهوم الحركة والسفر في مدينة القاهرة. يدير النقاشَ الباحث **محمد جاد**.

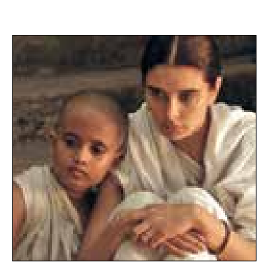

عند السادسة والنصف من مساء غدٍ، تعرض «مؤسّسة عبد الحميد شومان» في فرعها بجبل عمّان فيلم **ماء** (2005) للمُخرج الهندي **ديبا ميهتا**. يروي الشريط قصّة تشويا البالغة من العمر ثماني سنوات، والتي مات زوجُها قبل أن تقابله، فيَحلق والداها رأسها ويرسلانها إلى «منزل الأرامل». تلي الفيلم (117 د) جلسة نقاشية.

زهرة الماضي عنوان ورشة موجَّهة للأطفال بين 8 و11 سنة، يستضيفها «متحف الفنّ الإسلامي» في الدوحة في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر المقبل. تُقدّم الورشة **كلثم آل ثاني**، وتهدف إلى استكشاف جماليات الفنّ الإسلامي والمصنوعات اليدوية من خلال جولة يقوم في قاعات عرض المتحف وورشة تطبيقية.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

سعيد أبو غزة روائي

رسالتان لوصال

1

الأحد 3 مارس/آذار

صباح البنفسج الذي يُشبه جنون هدوئكِ يا وصال،

عذراً يا رفيقة الروح فإن مثلي لا أعذار له، فقد تأخرتُ بمعايدتكِ بأرق يوم هبت به نسائم الربيع باكراً، يوم صرختُ في أُذن الحياة بصوتكِ الذي هز رياحين الدنيا بأكملها، يوم مولدكِ يا مولدي الأول.

اليوم في مدينتي التي ارتدت الحُزن كانت رائحة الموت في غزة تفوق عزيمتي في العشق، فلم أكن قادراً على الهروب من مراسم الدفن السريعة، احتجتُ يوماً كاملاً لأستعيد توازني بعد خروج رائحة الموت من صدري، ثم ألتقط بعض العبير المُتدلي من صوتكِ المحفور في الروح لأقول: كل لحظةٍ وأنتِ حبيبتي ورفيقة روحي يا كُلي وتوأم قبلتي في العشق، يا روح قلبي الممتلئ عافية روحية وقلبية. في مدينتي «غزة» التي تأكلها نيران الحرب الكونية، مدينتي التي سلبت وقار كرامتي وشطرت دماثة عقيدتي الوطنية، أقف وسط الليل البهيم الممتلئ صواريخ قاتلة هُنا وهُناك لأُعيد تراتيب أولويات مقاومة الحياة في غزة التي تُعاني الموت، فأجدُكِ وأنتِ في القاهرة في سُلم أولويات حياتي فتنزل النجمات ليتراقص أمام ناظري بما يليق بشوقي وغيابكِ الذي يحتل مواطن الشغف.

كان بودي أن أُعيد بناء روحي بين ذراعيكِ هذا اليوم، فأنا الغريب والحبيب والعاشق المجنون والعائد من الحرب الهوجاء إلى موطن الطمأنينة، صدركِ المُخملي، لأدخل ساحة حرب أخرى من العشق حتى نهاية اللذة. لقد شعرتُ باللذةِ وأنا أبكي عدم تمكني من احتضانكِ هذا اليوم لأشتم رائحة الميلاد التي لا تُقاوم، لأشعر بحلاوةِ خلق الله لهذه الروح الياسمينية التي تجلى وكساها الحُب ليمسح على قلوب اهل الحُزن فيمحو الوجع والأسى فتنقلب أعينهم سعادة ذات لمعة مُشمسة.

شعرتُ هذه الليلة بالوحدة يا حبيبة الروح، فأنا أتألم في غيابكِ حد العذاب الذي لا يطيقه بشر، أكثر مما أتألم من صواريخ الحقد الصهيونية التي تقتل ينابيع العشق السرمدية، هذا العدو يُطفئ النور الشغوف ويحطم الزهور الودودة التي تستريح عليها الفراشات الندية.

صباحكِ يرضي عاشقاً مثلي أطال لحيته لأربعةِ أشهر حداداً على آلاف الشهداء، فلم يجد سواكِ يا حبيبة الروح، اليوم يا رفيقتي أقول لكل العالم الظالم أنني وسط الموت أُحبكِ وأراكِ حبيبة وأشعر بكِ مُحبة وألمسُكِ جمرة حُب لا تنطفئ ولو أحرقوا جسدي بصواريخهم سيخرج قلبي من بين الموت مُكتحلاً لا يرى من الحور العين إلا أنتِ.

كل عام وأنتِ الحبيبة القريبة للقلب، بعيدة كالقمر لكنكِ جميلة كالروح، برغم البُعد ومشقة الحدود إلا أن الحُب لا يقبل الموت.

هذه الليلة سأذكركِ كطفلة شقراء ذات جدائل ذهبية تُداعبين عيني وأنتِ تتقافزين خلف فراشات الجبل فأغفو ليلتي من دون أي صوت للموت والدمار لأصحو على وجهكِ كأنه يوم جديد، أن الحرب حُلم وأن الحدود خيانة للحُب.

أما أنا يا رفيقة الروح فمستذِلّ عاشق مقاوم هنا بين رائحة ركام البيوت الممزوجة بجثث النساء العاشقات، لو تُرجمت أمنياتي لكِ في يوم مولدك البهيج لكانت هذه عبارة الرجاء:

اللهم إنّ كان هناك في أعمارنا يومٌ بعد يوم، فلا تُرني في حبيبة الروح وجعاً مشابهاً لما أحياه في غزة يوماً، واملأ أيامها عافية روحية وقلبية وجسدية، وهبها جناح فراشة لتهتدي دوماً إلى رحيق روحي إذا يوماً خانتنا معابر الحدود ومنعت قلب الحبيب من الوصول.

الآن، أصوات صواريخ الموت تنهال على مدينتي وأنا منشغل بيوم ميلاد حبيبتي البعيدة، وكأني مشتاق لبحة صوتها بعنف أقوى من صوت قذائف الموت الحاقدة! نعم أنا العاشق الذي يقبض على الدهشة والعشق معاً وسط هذا الموت.

إنه العشق يا حبيبة الروح، ضرب من الجنون في الحرب، أجدني أتساءل كثيراً كيف لمن لا يعشق أن يصمد أمام الموت!

كُلما ضاقت الدنيا بي في هذه الأيام الصعاب داخل مدينتي الصامدة أمام الموت أنظر لصورتكِ أو أردد اسمكِ فيعتريني الهدوء ويلفني السكون، وكأن يداً ملائكية مسحت على قلبي فهدأت من نفسي القلقة عليكِ واستقر نبضي المضطرب وانتعشت روحي، وكأنني أدخل جنة آمنة حينما رأيت ملامحكِ في الصورة القديمة التي تبتسمين فيها للحياة، وربما يا حبيبتي أحرف اسمكِ وصف لمكان خرافي الجمال!

أشتاق يا وصال لحنو صوتكِ، ذاكَ الصوت الذي يُخرجني من الجفاف الذي يلتصق بصدري من غُبار أوجاع الحياة، يُصيبُني بنوبات عميقة من الحميمية، فألتقط هشاشتي سريعاً كطفلٍ سقطت منه قطعة الحلوى التي يرتجيها مُنذ زمن فيلتقطها سريعاً كالقابض على الحُلم وسط جدار العتمة، هذا أنا أيتها الحانية الأنيقة، ما هذه النعومة الوثيرة المتهادية بين متن الرواية الجديدة التي تملأ الأزمنة والأمكنة بنبوءات رقتكِ المُلهمة الداعية لابتلاع القصيدة كدواءٍ مهدئ بعد نوبة هلع شديدة، فيشتد ألم صهيل الخيل الجموح في آخر أمتار السباق الطويل داخل روحي فتزداد لذة الزهو من أول رعشة حُب.

تلك اللذة التي تجعل النسوة العاشقات يقفن على رؤوس أصابعهن في صف كورالٍ خلف غمام سمفونية خرجت للتو من صحوة البلابل بعد غفوة قصيرة مُنذرة بشرارة صِبا مجنونة بين قلبينا وسط دهشة الزحام وسرعة تدفق ينابيع الشوق أمام مرأى العطاشى الذين يسرقون لحن الصهيل كتراتيل قُداس الحُب السعيد.

الآن أنهيت لملمة خوفي الليلي المُعتاد كي أتفرغ لمشاهدة صورتكِ على هاتفي المحمول بقصد تحسين مزاج روحي وكذلك مزاج مدينتي أيضاً، ليعمّ الهدوء قليلاً حتى أستطيع أن أتأمل ملامحكِ الرهيبة البهية الشقية.

كل عام وقلبك بمعزل عن رجال الدنيا إلا قلبي أنا، فراقك موت، كل عام وأنتِ قريبة لقلبي واحتضانة يدي.

حبيبُكِ العاشق ابن غزة الذي لا يؤمن بالموت بقذائف الحقد بقدر إيمانه بالموت عشقاً على صدرك.

حبيبُكِ الغريب

2

العيد

يا وصال العشق الأبدي كل عام وأنتِ العيد السعيد يا كل موطن البهجة

كل عام والألق والبهجة يحتلان قلبكِ يا قلبي، كل عامٍ ولا حدود ولا موت يُبعدنا عن بعض.

صباح العيد يا خِلّي الوفي، أو على نحو أدق، إنه صباح حيث رائحة الموت تتفتق بين جدارن المدينة. تذكرتُ طقوسنا المجنونة يوم العيد، فأنتِ كالعيدِ تماماً يا وصال مختلفة وتبُثين البهجة، فالنظر في وجهكِ النوراني يهب الفرح للكونِ كله.

أنا يا سيدتي من حنينِ الوجع مُتعبٌ، سأدعوكِ بالوجع الجميل وسط التكهنات بزمان الموت في مدينتي التي تُقصف الآن بجنون لا مثيل له، والآن يا وجعي الرابض على صدري دُلني من أين لي بصدرٍ واسع بدل وطني الذي استُشهد وحيداً؟

الآن وحيدٌ وسط الركام دون أدنى مواساة، عيون اليأس صامتة مقيدة في الجنوب الغائر في زحام الأنين.

أنا من عشق الوطن متعبٌ يا سيدتي، من شدة حنيني الخارق للذكرياتِ الهاربة تحت زحام أقدام الغُزاة الماكرين، المتلذذين في قتل الجمال والأحلام وحرق قصائد الغزل.

صباح العيد يا جميلتي، أُغمض عيني لأراكِ تتأنقين برونق العيد، أؤمن أنكِ جميلة كالمعتاد إلا أنك بحضور العيد تبدين أبهى كطفلة أنيقة ذات جدائل ذهبية أو فراشة راقصة بألوان زاهية.

يا حبيبتي لا أرى بارقة أمل في انتهاء هذا الجنون اللا بشري، ولا أؤمن بنظرية الخديعة بعد الآن، كل ما سيعلق بذاكرتي هي العنصرية السادية التي مورست ضدنا نحن الأبرياء في غزة، فمن ينقذ مدينتي الحبيبة من فم الغول المتوحش؟

كل ما أملكه أن أفتش في خيالاتي عن زمن العروبة وانتصابة الرمح العفية لكن دون جدوى، أراها وهماً كوهم أن تلكَ الحسناء الثرية التي ترتدي أثمن الثياب وتُزين عُنقها اللوزي بعِقدٍ من الألماس البهي الغالي لتغري ذاك الكهل لليلةِ عشق لا تحدث، في كلتا الحالتين يا «وصال» حصنتُ نفسي بالتجاهل واستنباط الذرائع كي أُحب ما تبقى من العروبة كما يفعل ذاك الكهل الشقي حينما يتعلق بتلك الأرستقراطية النديّة!

صباحاً أرى ألوان الطيف تحتل جفنيَّ المتعبين من انتظار الموت الطارئ على مدينتي التي اعتادت الفرح ولم تعتدِ البكاء على قبور الراحلين، ما زلتُ أراقب الجنوب لأني مؤمن بأن قلبي في قفص صدركِ هُناكَ لا يُباع ولا يخون، أرقبُ نهوض ظل الموتى من المقابر مهرولة ابتهاجاً بزوال الموت، لإنارة فرحة الدموع المتراقصة في جفون الأطفال الذين بالكاد يستطيعون الوقوف على أقدامهم النحيفة، أقف على الناصية قلقاً بين الفرح والحزن، أُرتل نصاً سحرياً بأني ما زلت عربياً ناصرياً قومياً أؤمن بأن الفارس الهُمام العاشق لا يُدير ظهره إيذاناً بالرحيل.

هذا أنا سأُقبّلُ وجهُكِ يا كل جهاتي واتجهاتي، هاكِ يدي لا تدعيها إلا وقت انتحار الوهم الأخير برغم إيماني أن قلبكِ موطني، فلا أدري لماذا أنا الآن خائفٌ من المجهول!

أنا لن أتركِ يا وصال رغم الحدود وخيانة القريب والبعيد، رغم خوفكِ من الاقتراب من الحدودِ لاحتضاني من خلفِ الجدرانِ الإسمنتية الصماء الباردة، لقد قُلتِ لي ذات يوم أني أبوكِ والأب لا يترك يد ابنته ولا يخون عهداً.

تمنيتُ صباح العيد أن يأتيني هدهد سليمان بلباس العيد سعيداً يتلو النبأ اليقين بأنكِ قادمة تجاه الحدود وقد ثقبتِ حفرةً صغيرة لترسلي لي قُبلة الصمود!

ربما يأتيني هذا الهدهد العاشق بنبوءة الفرح فيجمع الله بين قلبين شتّت بينهما الاحتلال والحدود والمسافات الشاسعة، كل منا في جهةٍ معاكسةٍ هرباً من الموتِ رغم أن كل شيء موحشٌ من دون يديكِ، فأنا عاشقٌ مهووسٌ تشفى جراحي ومخاوفي بقربكِ فقد طال الشوق الآن يا وصال وعجز عن مداواة آهاتي الأطباء والدواء.

يا وصال لما زالت روحكِ العذبة تُرافقني طيلة أيام الحرب الموحشة، جعلتي الأشياء أقل بشاعة من المعتاد بل ومختلفة نوعاً ما، وجهُكِ الذي كساهُ الله بالطمأنينةِ يتجول معي فيطمئن لي المارة بدون أن يعرفوا أنكِ السرّ، في الحرب اكتشفتُ أن البُعد خُرافة العُشاق الضعفاء، نعم في البُعد تُزهر روح المشتاق كما اللقاء تماماً، ما يُذبل الروح هو عدم الأمان حتى لو تنام في حضن الآخر.

نحن العشاق لا نكره يا وصال الروح إلا إذا تألمنا من الحُب وخيانة الصديق والحبيب والقريب وأبناءَ العروبة، الآن الوجع يتراكم يا سيدتي وأخاف أن أصل لمرحلة لا أستطيع التحمل بعدها، لا أريد الاستسلام فربما وقتها يتغير قدري!

الاستسلام يعني الموت يا سيدتي، لذلك لن أستسلم وسألقاكِ رغم أني أراكِ، سأبقى ألتقيك عبر الروح يا حبيبة الروح. لقاؤك يُقوي الصمود أمام ماكينة الموت التي لا تهدأ ويُمَتن رقائق القلب الذي يتجرع الحزن كل لحظة. أشعرُ بكِ تهزين كياني حينما أصمت تهتفين: هيا يا حبيب الروح قاوم من أجلنا أنا وفلسطين، لا تستلم أبداً، لديك معي لقاء أكيد لا شك فيه، لقاء حميمي مجنون يُشبه صمودك الأسطوري، لديكَ صدر شاق بكَ ولكَ، تنتظرُك عينان متشوقتان لِتُلهمهما الكثير من الرقة، وهاكَ يديَّ ترتجفان، تحتاجان يديك لتقبضا عليهما فتهدأ للأبد.

واصل يا رفيق صمودك الأسطوري وسط هذه الحرب الشرسة، إنه وقود الإيمان والحُب القويم من أجل البقاء كعاشق يحرق بقايا الحقد الأسود العالق في مجرة الإنسانية.

يا أيها الغريب العاشق: كلما دفعتك الحرب المجنونة أن تجثو على ركبتيك ارفض ذلك بل صلِّ لربك ركعتين فإن الجثو هو الوضع المناسب للصلاةِ. أنا يا وصال القلب أبكي من الوجع وأهوال الحرب القذرة نهاراً وفي الليل أنزوي لأبكي شوقاً، رغم الخوف الرهيب من الموت إلا أنني لم أتجاهل غيابكِ القسري فأنا متعبٌ من الانتظار، من الشوق، متعبٌ لأني تعودت الألم، ربما أحتاج إلى قضاء الكثير من الوقت مع دموعي وربما خارج حياتي أنا، لا أعرف كيف سألقاكِ وبداخلي كل هذا الوجع الذي لا يُطاق؟ وجع حوّل قلبي لروايةِ رعب طويلة فأهوال الحرب كانت تحتاج لألف قلب عظيم يسكُنني.

كل عام وأنتِ عيدي السعيد، فالعيد أن أرى وطني بلا موت وأن أراكِ بين جفني ضاحكة وكأنكِ عيدٌ وباقي النساء أيامُ صيام.

حبيبُكِ المشتاق

الغريب

> ضربٌ من الجنون في الحرب، أجدني أتساءل كثيراً كيف لمن لا يعشق أن يصمد أمام الموت!
>
> تمنيتُ صباح العيد أن يأتيني هدهد سليمان بلباس العيد سعيداً يتلو النبأ اليقين بأنكِ قادمة تجاه الحدودَ

فايز أبو عون كاتب

ثلاث حكايات من الحرب

الطفل الأسطورة

سار بخطى واثقة سير الأبطال، وقف على باب بيتهم المدمر شامخاً شموخ الجبال، وصف للصحافيين والمهتمين بما ألمّ به وبعائلته من خوف ووجل، وصفاً دقيقاً يفوق به كثيراً من الرجال، تسمعه فتحسَبه رجلاً كبيراً وهو ما زال من الأطفال.

الطفل محمد الخضري ابن الخامسة من عمره، كان شاهداً على تفجير باب منزلهم، واقتحام جنود مدججين بالسلاح، يحسَبون أنفسهم رجالاً وهم كأشباه الرجال، كونهم رَوّعوا الصغار قبل الكبار، وعاثوا في المنزل خراباً وتدميراً، وتركوه كما لو أصابه زلزال.

هذا ما بدأ به محمد الذي سمع بأذنيه، وشاهد بأم عينيه، حديثه عن عملية اقتحام جنود الاحتلال لمنزل عائلته، واعتقال والده بعد إصابته في عينه، جراء إطلاق النار بكثافة في كل مكان حولهم، وضرب والدته التي أنزلت يديها عن رأسها، وحاولت أن تتناول طفلها الرضيع عن الأرض، وجمعهم في إحدى زوايا البيت، والبدء بتكسير كل ما هو زجاج أمامهم وتحت أرجلهم الحافية.

وقال: ضرب وتنكيل، صراخ وعويل، تهديد بالقتل، مصحوباً بنباح كلاب بوليسية مدرّبة، هذا كله وغيره الكثير، ونحن ووالدتنا نبكي من شدة الخوف، لا يسمحون لنا أن نتحرك من مكاننا، ففوهات بنادقهم مصوبة إلى رؤوسنا، وآخرون يعيثون في ممتلكات بيتنا دماراً وتخريباً، لم يبقَ شيء في مكانه إلا وكسروه، فأدوات المطبخ أصبحت حطاماً، وملابسنا باتت ممزقة لا تصلح لشيء إلا لمسح البلاط. وحين انتهوا من كل ذلك، أخذوا والدي معهم معصوب العينين، مقيّد اليدين، غير آبهين للدماء التي تنزف من عينه المصابة بشظايا رصاصهم، سحبوه من قميصه المضرج بالدماء، ووجهه الذي ينزف بغزارة، غير آبهين لتعثره أكثر من مرة، على سلم العمارة، اصطحبوه ومشوا به بعيداً تحت إطلاق وابل من الرصاص تحت أقدامنا، وعلى ما تبقى في المنزل من شاشة التلفاز، والخزائن، كان هدفهم التدمير والتخريب، وبث الرعب في قلوبنا، ليس إلّا.

هذا هو حالنا كآلاف العائلات في قطاع غزة، لكن كل ما فعلوه بنا لن يثنينا عن العودة إلى منزلنا، وإقامة خيمة على أنقاضه، ومن ثم تشييده مجدداً، إن سنحت الفرصة، فالاحتلال إلى زوال، طال الزمن أم قصُر.

صحافيون في دائرة الاستهداف

«أمانة يا دكتور تركّب لي بلاتين، وترجّع لي رجلي مكانها، أنا ما بأقدر أعيش برجل واحدة، أنا لا أعرف لماذا قصفونا، طلبوا منا ارتداء الدرع والخوذة فارتدينا، قالوا أنتم محميّون بقوة قانون حماية الصحافين فقصفونا» هذا ما قاله الصحافي سامي شحادة وهو ممدد على سرير «مستشفى شهداء الأقصى» بدير البلح في غرفة العمليات. وتابع شحادة: «سأكمل رسالتي في مهنة المتاعب حتى ولو كنت على عكاز، لن يثنوني عن أداء رسالتي هذه، على العالم محاكمة إسرائيل على جرائمها بحق المدنيين العزل، والصحافيين الذين يؤدون رسالتهم المهنية والوطنية والإنسانية.

في صباح ذلك اليوم، ارتدى سامي ملابسه على عجل، تمنطق بدرعه الصحافية، حمَل كاميرته على كتفه، سارع الخطى نحو سيارته، استقلها، سار بها في شوارع المخيم، وجد الكثير من زملائه ممن سبقوه إلى المكان، اندسّ بينهم لالتقاط صور جديدة للحدث، لم يأبه بأصوات طائرات الاستطلاع والطائرات الحربية التي تُحلق في سماء المخيم، ولا بأصوات الاشتباكات الدائرة في المنطقة الشمالية للمخيم، على بُعد مئات الأمتار من مكان وجودهم، كان همه الوحيد أن يؤدي عمله المهني على أكمل وجه، وينقل هموم الناس إلى العالم، ويفضح جرائم الاحتلال بحق شعب أعزل، وما كل ذلك إلا من عزيمته وصبره على البلاء. حين التقط بعدسة كاميرته كل ما شاهده بالعين المجردة، حاول التنحي جانباً، وأخذ استراحة مقاتل، لاستجماع قوته، استعداداً لأي تصعيد جديد، غير مدرك أنّ عدونا لا يهنأ له بال، ولا يستكين له حال، إلا ويحاول إخفاء جرائمه، من خلال قتل الصحافيين، وطمس الحقيقة، وإخفاء الصورة عن العالم. لم يكن سامي صحافياً عادياً، بل كان شعلة من النشاط، تجده أينما وُجدت الأحداث، فاستهدفوه كما استهدفوا غيره، فأُصيب معه زملاؤه سامي برهم، وأحمد حرب، ومحمد الصوالحي، كما غيرهم الكثير، فالحرب مسعورة، والجنود موتورون، لا يأبهون لإدانة دولية، أو للاستنكارات العربية، فالقتل ديدنهم، والتشريد غايتهم، ولا يهنأ لهم بال إلا بإبادة كل شعوب العالم ليحيا شعبهم.

خروجه كطير العنقاء

صرخ بصوت مكتوم أكثر من مرة: «أنا هان، في حدا سامعني؟» وحين لم يأته جواب، استسلم للبكاء، فذرف الدموع بغزارة، لكنه تذكر أن الدموع في مثل حالته هذه، لا تُسمن ولا تُغني من جوع، أو بالأصح، لا تُنقذ حياته، فعاد يصرخ من جديد: «يا شباب، أنا محمد، أنا ما زلت عايش، يا شباب، أنقذوني».

بعد وقت قصير مرّ عليه كأنه الدهر كله، سمع الطفل محمد ابن الثالثة عشرة من عمره، صوت أحد الشباب ينادي ويقول: «هل هناك أحد ما زال على قيد الحياة»، وعندما لم يأته أي جواب، بالسلب أو بالإيجاب، بدأ ينادي عليهم كلٌّ باسمه، وبعد كل اسم ينادي عليه، كان يصمت برهة من الزمن، علّه يسمع صوت أحد من تحت الأنقاض، ومن بين أكوام الركام، يطلب النجدة، أو يئنّ من ألم: «أبو محمد، أم محمد، محمد، في حدا سامعني؟».

فتهلل وجه محمد المصاب بجروح وكدمات، والنازف منه الدماء بغزارة، وبدأ يفتح فمه المليء بالتراب، وينادي بصوت مكتوم، لا يسمعه المنقذون إلا بصعوبة: «أنا هنا، أنا ما زلت على قيد الحياة، في حدا سامعني؟».

فجاءه الجواب على عجل: «مين أنت، في حدا من أهلك جنبك، في حدا عايش؟ حدد مكانك بالضبط، من أجل إخراجك»، فقال: «أنا هنا في الزاوية الشرقية لبيتنا، وجنبي أختي سلمى لا تتحرك، أظن أنها ميتة». فأعاد المنقذ السؤال من جديد: «كيف والدك ووالدتك هل هما على قيد الحياة، وأين هم موجودون، وباقي إخوتك، المهم أنت لا تخاف، أنت أصمد، وإقرأ قرآن، إحنا سنخرجك بإذن الله».

بدأ العشرات من الشباب من مختلف الأعمار، بالعمل كخلية نحل، منهم من عمل على رفع الحجارة الصغيرة، ومنهم من كان يكسر الحجارة الكبيرة، وآخرون ينقلونها بعيداً عن المكان، إلى أن استطاعوا الوصول إليه بشق الأنفس، فحاول رفع يده، فلم يستطع، لكن لسانه كان يلهج بالدعاء أن يكون مصير عائلته كمصيره، وألا يفقد أحداً منهم على الإطلاق. طالبه الشباب بعدم إجهاد نفسه، وبعدم التحرك حتى يصلوا إليه لإخراجه، وشيئاً فشيئاً، استطاعوا سحب جسده من تحت الركام، كطير العنقاء، وضعوه على نقالة، وحملوه إلى سيارة الإسعاف التي كانت تقف غير بعيد عن المكان، فنقلته إلى المشفى المدمر جزئياً، لكنه يعمل بإمكانيات بسيطة.

فور وصول الطفل محمد إلى المستشفى، غاب عن الوعي، وبمجرد أن فتح عينيه بعد إفاقته، سأل عن أهله، عن والده ووالدته، وعن أختيه سلمى وعبير، ما هو مصيرهم؟ هل هم بخير؟ هل تم إنقاذ أحد منهم؟ لكن من كانوا يقفون إلى جانبه للاطمئنان عليه، أخبروه أن عائلته استشهدت من شدة القصف، وأنه الآن أصبح وحيداً، ويجب عليه أن يتحمل هذا الفراق الصعب، والألم الشديد، وأن يكون على قدر كبير من المسؤولية. سارع حينها محمد إلى سحب الغطاء الملقى فوقه، ووضعه على رأسه، وأجهش بالبكاء، فذرف الدموع بغزارة، وترك العنان لنفسه للتفكير في مصيره بعد تلك المصيبة، أين سيسكن، ومع من سيعيش، ومن سيتقبله، وهل سيبقى وحيداً طوال حياته، بعد أن كانت له أسرة متماسكة يحب بعضها بعضاً. وحين حاول من يقفون معه، تهدئة روعه، والتخفيف من مصابه، قال بصوت متحشرج: «يا ليتني بقيت تحت الأنقاض، ولم ينقذني أحد، يا ليتني مت مثلهم، لنرتقي معاً إلى الجنة»... إلى متى سنبقى هكذا؟ عائلات كاملة تباد، وأطفال يشردون، ونساء مكلومات يترمّلنَ...

> حين التقط بعدسة كاميرته كلّ ما شاهده بالعين المجردة، حاول التنحي جانباً، وأخذ استراحة مقاتل
>
> مع من سيعيش، ومن سيتقبله، وهل سيبقى وحيداً طوال حياته، بعد أن كانت له أسرة متماسكة يحب بعضها بعضاً